١ تيم ١، ١٥-١٧

الأحد الـــ ٣١ بعد العنصرة

"الكـــلمة الصـــادقة" عن الله

"أنّ المسيح يسوع إنّما جاء ليخلّص الخطأة الذين أنا أوّلهم"

"صادقة هي الكلمة وجديرة بكلّ قبول"، بهذه الكلمات يتوجّه بـولس الرسـول إلى تلميـذه تيموثاوس، وإلى التلميذ الذي يثق بمعلّمه ويحبّه فيُدعى منه "ولدي". فهل هناك من حاجة ليؤكّد بولس كلّ هذا التأكيد أنّ ما يقوله صادق وأنّه يستحقّ القبول؟ وهل يكذب بولس على تلميذه؟ أم أنّ تلميذه شكوك بكلامه؟ حاشى! لكن الحقيقة وراء كلّ هذه التأكيدات هي أنّ بولس كان يشعر ذاته مُقْـدِماً على التفوّه بكلماتٍ غريبة جدّاً، لا بل لعقل الناس آنذاك كانت غير منطقيّة وجديدة. وهذه الكلمة هي "أنّ يسوع المسيح جاء ليخلّص الخطأة"!

كان "الله" في الضمير الإنسانيّ هو القوّة العليا العادلة. ولعلّ الأديان كلّها تقوم بالأساس علـى مبدأ العقاب والثواب، أي على حقيقة العدالة الإلهيّة. والدِّين هو ما يفسّر الحياة العادلة التي بعد هـذه الحياة غير العادلة. الدِّين هو النظام الذي يعطي حلاً لعدم وجود عدالة على هذه الأرض فيَعِـدُ بإلـه عادل. واخترعت الأديان نظامها القضائيّ العادل، فوجد بعضُها الحلّ في التقمّص، ووعـد بعضُـها بالخيرات هنا على الأعمال الطيّبة والمجازاة على الأعمال الشرّيرة؛ وكلّها فشلت في تفسـير مشـاكل وحقائق الحياة اليوميّة للبشر.

ولم يثبتْ أمام الواقع الإنسانـيّ غير المتوازن إلاّ الوعدُ بإلهٍ عادل يقيس الأعمالَ ويعلَمُ الخفايا، يفتح الجنّات في الدهر الآتي ويحرق الأشرار بالنار. فالله هو بالعمق "الديّان العادل".

فما بالنا إذن بإله لا يعُدل، أو بإله لا يدين! لذلك في مثل الابن الضال لم يفهم الأخ الأقـدم- الأكبر واعترض على الأب كيف لا يعدل، فهو يكافئ مَن عاد بعد أن بدّد كمَن كان يعمل. وكذلك

في مثل العبيد كان غريباً للجميع كيف أعطى السيّد للعبد الذي انضمّ إلى العمل في الساعة الحادية عشرة، أي قبل نهاية ساعات عمل النهار بساعة واحدة أجرةً تساوي العاملين اثنتَي عشرة ساعة. وتبدو هنا من "المقاييس البشريّة الناموسيّة العادلة" أن في هذا الكرَمِ عدمَ عدالة! لكن المعيار الإلهيّ هو "الرحمة"! بهذا الإله جاءت المسيحيّة وعلّمت عنه! الله ليس الحاكمَ العادلَ بل "إلهُ الرأفات وأبو كلّ تعزية".

إنّ الله العادلَ يرحمُ الرحوم ويكافئ الأبرار ويحاكم الخطأة ويقضي للمسكين على الأشرار. ومن هنا فالأعمال الشخصيّة لكلّ إنسان هي التي تخلّصه أو تهلكه، تبرّر أو تدين. ويتبقّى لله دور القاضي المقسط العادل يوم الدِّين فقط. لقد كان غريباً أن يأتي إله يخلِّص ولا يدين! وليس كذلك فقط، بل يخلّص الخطأة أيضاً!

إنّ هذا الأمر لهو فوق المنطق البشريّ، نعم! ولذلك يحاول بولس الرسول التأكيد والقسم في عباراته "صادقة الكلمة وجديرة بالقبول". على كلٍّ، يعجز بولس عن نسج البرهان على ذلك من شباك الأفكار البشريّة، لذلك يلجأ إلى أمرٍ واحد عرفه هو، وهو الواقع والحدث، إنّه حدثُ خبرتِه الشخصيّة، فهو المضطهِد للكنيسة يختاره الله إناءً مصطفى، وهو بعدُ جاهلٌ ومحاربٌ يظهر له يسوع المسيح على أبواب دمشق ليكافأه وليس ليحاكمه، ليجعله رسولاً خاصّاً وليس ليحرمه أو يفنيه عقاباً على أعماله.

إنّ أكثر مَن يشعر برحمة الله هو مَن يدرك خطيئته من جهة ويلحظ العطايا الإلهيّة من الجهة الأخرى. "أنا أخطأتُ كإنسان أنتَ ارحمْني كإله"، لهذه العبارة توصّل الأدب المسيحيّ. ما الذي يحصل بيننا وبين الله لو أنّنا أخطأنا؟ إنّ الرحمة هي التي ستغلب، إنْ لم يقسُ قلبُنا. لا شيء يمنع رحمة الله وحبه وغفرانه، لا الخطيئة ومهما كانت عظمتها ولا كرامته، إنّما فقط قساوتنا؛ إنّه يريد "أن يعود الخاطئ ويحيا". هكذا بالتوبة تصير الخطيئة نفسها وسيلةً لإدخال الإنسان، بمزيد من العمق، في سرّ الحبّ والحنان الإلهيَّين.

يتكلّم بولس من خبرته الخاصّة مع الله، ومع يسوع بالذات. لقد خلّص يسوعُ بولسَ لأنّه أحبّه، وفقط لأنّه أحبّه. لقد خلّصه وهو بعد مناوئٌ ومحارِب. لهذا يتكلّم بولس باستمرار وبشكل متواصل في كلّ رسائله عن لاهوت النعمة والرأفة والرحمة. لأنّه يعرف من حياته أنّه خَلُصَ لأنّ الربّ أحبّه وليس لحكمته الشخصيّة. لغة الربّ هي الرحمةُ وليس الغضبَ؛ وذلك مهما أطلق عليها الناس من ألقاب دينيّة عبر الدهور، كانت تلك الألقاب تعبر في العمق عن محصلة الصراعات الداخليّة لدى الإنسان وليس عن رغبة الله الحقيقيّة.

الرحمةُ الإلهيّةُ نارٌ تطهّر ضميرَ مَن يكتشفها أو تحرق ضمير مَن يتجاهلها. عندما يدرك الإنسان رحمة الله رغم خطاياه، يقوده ذلك الإدراك إلى الخشوع والرجاء. وهذان هما عمادا التوبة: الانكسار واليقين؛ الانكسار أمام الضعف الذاتيّ واليقين بالحبّ الإلهيّ. أنا ضعيف كإنسان وينتظر منّي أن أخطئ. والله حنون ومحبّ ويُنتظر منه المساعدة.

ليس الله حاكماً بل هو المخلّص. بهذا الإله بشّر الملائكة يوم ميلاد يسوع. لذلك ليست المسيحيّة ديناً بمعنى النظام الاجتماعيّ المتوازن. بل المسيحيّة- بناء على رحمة الله- هي أسلوب معافاة... "كن معافى إيمانك خلصك"، هكذا كان يكلّم يسوع المرضى والمعذّبين بالأرواح الشريرة.

تنهض المسيحيّة بالإنسان، لأنّ الله يمدّ يده ويبسط نعمته. يستشفي الإنسان في الكنيسة، فينمو من كائن ضعيف تستهلكه الرغباتُ وتسيطر عليه النزوات، ويتعافى إلى حالة الإنسان الروحانيّ الذي لا يستهويه إلاّ الفضائل وإنكار الذات.

إنّ الرحمة الإلهيّة هي أقوى دواء إلهي لشفاء داء الخطيئة البشريّة. الإنسان كائن كريم حتّى عندما يخطئ. لذلك لا تشفيه العقوبة بمقدار ما تحرقه المحبّة. والإنسان الجريح المتخشّع قويّ جدّاً، يحطّم في داخله ما كان سبباً لجرحه. التوبة ثورة داخليّة على الضعفات أطلقها صوتُ الإعلان بالغفران وإدراكُ الرحمة الإلهيّة التي جاءت جواباً على ضعفاتنا البشريّة.

تنطلق المسيحيّة من إيمانها أنّ الإنسان صالحٌ وليس شرّيراً. لا يوجد إنسان خاطئ بل مخطئ فقط. لأنّ الإنسان صالحٌ. هل يوجد أكثر من يهوذا قد أخطأ. ولكنّه لم يُعدمْ من كلّ أصله الصالح، لذلك "ندم"! يقول الذهبيّ الفمّ. الإنسان هو كائن كريم، لذلك إنّ الرحمة الإلهيّة لا تقوده إلى الاستهتار والتأجيل بل تجرحه في العمق حين تلمسه بعد الخطيئة عوض أن تترصّده بالمجازاة.

يقول بولس الرسول عن ذاته إنّه "أوّل الخطأة"، لكننا نصفه بأنّه "أوّل جريح" من الرحمة الإلهيّة، التي قلبتْه إلى مصارع لم يهدأ حتّى صرخ "لي شهوة أن أنطلق" إلى يسوع. وإذا كان هناك من شيء في الحياة الحاضرة يستحقّ البقاء فهو الكرازة بيسوع. لذلك يقدّم "هذا الجريح" ذاته مثالاً لأمرَين، الأوّل هو رحمة الله الذي اختاره رسولاً، وهو كان بعدُ مضطهِداً، وبالتالي الدعوة إلى إدراك الرحمة الإلهيّة التي تعمل ليس حين ندركها فقط وإنّما قبل ذلك.

بولس الرسول قائدُنا إلى التوبة وإلى تبديل الحياة، وجعل آنِيَّتنا التي في هوان آنية كرامة. لذلك تتوقّف صلواتنا كثيراً عند حياته وكلماته. وتهيّؤنا صلوات الاستعداد للمناولة بمثاله وكلامه. فتقول:

"فأؤمن أنّك سترحمني... لأنّك ما تركتَ المضطهِد (بولس) على ما كان عليه لما تاب، لكنّك أحصيتَ في مصاف أحبّائك جميع الذين أقبلوا إليك بالتوبة". و"أؤمن يا ربّ وأعترف أنّك أنت هو بالحقيقة المسيح ابن الله الحيّ الذي أتيتَ إلى العالم لتخلّص الخطأة الذين أنا أوّلهم".

نعم صادقة هي الكلمة وجديرة بكلّ قبول أنّ رحمة الله تجعلنا توّابين إليه، آميـــن.